المبحث الثالث

جهود الحكيم فى علم الكلام وموقفه من المتكلمين

الحكيم الترمذى إمام من أئمة الإسلام، وعلم من أعلام الرجال ومفخرة العلماء السالكين. تشبع من الثقافة الإسلامية على اختلاف ألوانها وانعكست أضواء ثقافته على مؤلفاته وتجلى فى جميع ماكتب: صفاء الذهن، وعمق الفكرة، ودقة التحقيق.

ومما يدركه الدارسون والمتتبعون لمؤلفات الحكيم أنه لم يضع كتبا مستقلة فى مباحث علم الكلام كما فعل فى فروع المعرفة، والعلوم الأخرى اللهم إلا رسالة فى موضوع الإمامة بعنوان «الرد على الرافضة»[(١)]، رد فيها على أهل الرفض لإمامة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما، كما ناقش فيها قضية الخلافة، أما كتاب «الرد على المعطلة» فهو كتاب حديث تناول موضوعا من موضوعات علم الكلام وهو إثبات الصفات لله سبحانه وتعالى، على منهج أهل السنة، وهو بهذا يرد على المعتزلة الذين يرون نفى الصفات ويسمى الحكيم المعتزلة فيما ذهبوا إليه بالمعطلة كذلك يرد على الكرامية[(٢)] الذين يقولون بالتجسيم أو التشبيه.. والمتأمل فى كتاب «الرد على المعطلة» يجد أن الحكيم الترمذى: «تناوله من وجهة نظره كمحدث، وكان عمله فيه عملا يستهدف أولا وقبل كل شئ جمع الأحاديث التى تعضد وجهة النظر السنية المثبتة لصفات الله سبحانه، ومن هنا يمكن القول بأن الحكيم كان يعتنق مذهب أهل السنة فى علم الكلام وأن لم يخض فى مباحثه كما خاضوا»[(٣)] .. ومن الملاحظ أن الحكيم ذكر الأحاديث فى كتابه دون تعليق منه أو

---

(١) مخطوط بمكتبة ولى الدين بتركيا تحت رقم ٧٧٠.

(٢) الكرامية اتباع محمد بن كرام ٢٥٥ هجرية.

(٣) الدكتور الجيوشى، الحكيم الترمذى دراسة لآثاره، ص ١٨٢.

شرح لتقول كلمات الأحاديث عنه مايريد أن يقوله هو ... وقد أكثر الحكيم من الكلام فى كتاباته ومؤلفاته على التوحيد والموحدين بطريقة ومنهج يختلف عن منهج المتكلمين فى معالجة هذه المسائل.. لقد كتب الحكيم فى التوحيد بطريقة موضوعية يتعامل معها الإنسان فى كل وقت، وهذا من شأنه أن ييسر إدراك الدليل ويمهد النفس لتقبله، ويقوى الالتزام به، يقول الحكيم فى معنى لا إله إلا الله: «إن كلمة لا إله إلا الله لازمة للخلق: الاعتقاد لها قلبا، والاعتراف بها نطقا، والوفاء بها فعلا، فأما الاعتقاد لها قلبا، فأن تعتقد نفى القدرة عن جميع من تولهت إليه القلوب فى المضار والمنافع سواء.. وأما الاعتراف بها نطقا فأن يقول : لا إله إلا الله، وأما الوفاء بها فعلا فأن يكون له من الثقة فى باب النوائب، ومن التوكل فى باب الرزق، ومن التفويض فى باب الحوائج، ومن الصبر فى باب الشهوات، ومن القناعة فى باب المنالات، ومن الانقياد فى باب العبودات، ومن التسليم فى باب المتشابهات، ما يحفظ هذه الجوارح السبع التى أؤتمن العبد عليهن»[١].

ومنهج الحكيم كما يتبين للدراس يقوم على إقناع الإنسان بجانبيه الوجدانى والعقلانى «فالإنسان ـ كما هو معروف ـ مركب من جانبين، جانب وجدانى، وجانب عقلانى، وكل من هذين الجانبين له أسلوبه الذى يعالج به، فليس يقنع الجانب الوجدانى ما يقنع الجانب العقلانى، والعكس صحيح، وحين نقتصر فى محاولاتنا إقناع الإنسان بقضية ما على مخاطبة جانب واحد، فإن تلك المحاولات تفشل يقينا، ولا تؤتى ثمارها المرجوة وقصارى ما نصل إليه فى تلك الحال هو أن نخلق نوعا من الشك والحيرة لدى الإنسان ولكنا أبدا لن نصل إلى مرتبة الإقناع، لأن الوصول إلى تلك المرتبة رهن بتضافر الوجدان والعقل جميعا»[٢].

قال أبو عبد الله محمد الترمذى: تفسير كلمة لا إله إلا الله «إذا قال العبد لا

(١) انظر الحكيم الترمذى، الكلام على معنى لا إله إلا الله، ص ١٣.
(٢) راجع الدكتور مزروعة، المنهج القرآنى فى الاستدلال، ص ١٠٨، ط دار الطباعة المحمدية.

إله إلا الله، فإن معناه : لا رازق، ولاكاف ولامعبود إلا هو، ولا نافع ولاضار، ولامعطى ولامانع ولا محيى ولا مميت ولا معز ولا مذل إلا الله عز وجل»[1].

ان حديث الحكيم عن التوحيد هو الحديث الذى يرضاه السالكون ويعتقدون أنه التنزيه الحق الذى يليق بالله سبحانه وتعالى. وهو حديث يعتمد على الجانب الوجدانى أكثر من اعتماده على الجانب العقلانى.. ولايخفى أن الأدلة التى صيغت بأسلوب عقلى محض، لم تفقد الجانب المهم فحسب، بل فقدت الجانب الأهم حين عرت عن كل مايخاطب الوجدان ويأسره.

وللحكيم جهود فى مباحث أخرى من مباحث علم الكلام، أشار إليها فى كتاباته إشارات يتبين منها رأيه ومنهجه.

ومن ذلك موضوع «الإيمان» هل هو مكتسب أو موهوب؟ وهل يزيد وينقص؟وهل الإسلام والإيمان اسمان لشئ واحد؟ أم لشيئين مختلفين؟

ويعرض الحكيم الترمذى المقولة الأولى: هل الإيمان مكتسب أو موهوب؟ فيقول: «سألتنى عما وقع فيه الناس من الاختلاف فى الإيمان ومحله من ابن أدم، وإنما أتوا ذلك من قلة أفهامهم، وترك الاستقصاء فى النظير..فاعلم أن الله تبارك اسمه خلق هذا الآدمى وركب فى رأسه عينين وأذنين، يبصر ويسمع ظاهر الأشياء، وجعل فى جوفه بضعة من لحم لها عينان وأذنان، فسماها قلبا وفؤادا، والقلب مابطن منهما والفؤاد ما ظهر منهما، والعينان على الفؤاد، والرؤية له، وذلك قوله : ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾[2] وجعل لهذه البضعة ساحة وهى الصدر، وذلك موضع العلم، وجعل فيه الروح، وفيه الحياة، وهو سماوى. جعل فيه نفسا، وهى أرضية وفيها الحياة وجعل مستقر الروح فى الرأس، ثم هو منتشر فى جميع الجسد، مشتملة عليه

(١) انظر الحكيم الترمذى، «علم الأولياء» ص ١٨١، ط مكتبة الحرية الحديثة.

(٢) سورة النجم آية ١١.

بالشهوات والهوى. وجعل مستقر العقل فى الرأس معه الروح، وفى هذا الحفظ ثم يشرق فى الصدر نوره، وهناك معتمله، ومستقر الذهن فى الصدر والعلم معه، فمنه تصدر الأمور إلى الجوارح فبذلك العلم علم الآدميون كلهم أن لهم ربا وإلها، فأقروا به ، وفزعوا إليه فى المضار والمنافع، وعرفوه بقلوبهم، والقلب أمير على الجوارح، والمعرفة فيه. وتلك معرفة الفطرة التى فطر الناس عليها(١).

والحكيم الترمذى لايقف عند هذا الحد من المناقشة والعرض بل يقرر فى تأكيد قوى فيقول : «إن الإيمان استقرار القلب، وطمأنينة النفس، والقلب كان طالبا لربه، مترددا لايستقر، والنفس متحيرة لاتسكن فلما جاء نور الهداية استقر القلب، واطمأنت النفس فقيل أمن على قالب فعل يأمن أمنا، والاسم منه الأمن، وذلك طلبه معبوده، فتردد فى طلبه مرة إلى الوثن، ومرة إلى الشمس والقمر، ومرة إلى النيران وهو فى ذلك متحير، فلما وجد هذا النور من منة الله عليه، سكن عن التردد والجولان فقيل أمن من يؤمن إيمانا، والاسم منه إيمان فالنور هدية الله لأهل منته وأحبابه وأوليائه والسعداء من عبيده، ومعدن ذلك النور فى القلب، والإيمان هو لمن نال هذه الهدية»(٢).

ولعلنا ندرك فى وضوح تام أن الحكيم الترمذى يناقش هذه القضايا من باب القلب، وذلك لأن القلب معدن النور، والنور هدية الله. وبناء على ماذكره الحكيم فى مقولة: هل الإيمان مكتسب أو موهوب نجد أنه :«يرى أن الإيمان مكتسب ولكن ما كان به الإيمان وهو العقل فهو موهوب»(٣) أما مقولة : «هل الإيمان يزيد وينقص»؟ فإننا نجد أن الحكيم يذهب إلى أننا «حينما ننظر إلى الإيمان باعتبار حقيقته وذاته

---

(١) الحكيم الترمذى، «مسألة فى الإيمان والإحسان والإسلام» تحقيق الدكتور الجيوشى، مجلة منبر الإسلام عدد ٦ ص ١١٥، السنة ٣٨.

(٢) الحكيم الترمذى، «مسألة فى الإيمان والإحسان والإسلام» منبر الإسلام ع ٦، ص ١١٧، السنة ٣٨.

(٣) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى وقضايا علم الكلام» مقال بمجلة منبر الإسلام ع ٢، ص ١٠٧، السنة ٣٨.

هو لا يزيد ولاينقص، وأما إذا نظرنا إلى تأثيره وأثره فإنه تجرى عليه حينئذ الزيادة والنقصان بسبب ما يعترى قلب المرء من أغراض وأهواء تحجب أشعة الإيمان أن تنطلق فتوجه سلوك الإنسان وتصرفه[1] وقد ضرب الحكيم للحالتين مثلا بقرص الشمس بالنظر إلى الحقيقة، وبشعاع الشمس بالنظر إلى الآثار[2] .. ويقول الحكيم فى مناقشته لهذه المقولة «ولقد دخلت بين متنازعين، يقول أحدهما: الإيمان يزيد وينقص ويقول الآخر: لايزيد ولاينقص، فأشرت إلى عين الشمس، فقلت : ماهذه ؟

قال : هذه شمس.

فقلت : تنقص أم تزيد ؟ قال : لا.

ثم أشرت له إلى إشراقها على الأرض.

فقلت: ماهذا ؟ قال هذه شمس..

قلت : تزيد وتنقص.. فتحير قلبه.

قلت : أليس إذا كان بينهما وبين الأرض غيم أو سحابة رقيقة نقص من إشراقها فإذا ذهب الغيم زاد فى إشراقها؟ قال : نعم.

قلت : أفليس تسميه شمسا وهو يزيد وينقص، وتلك العين تسميها شمسا وهى لاتزد ولا تنقص؟ قال : نعم..

قلت : أفليس بقدر ما تنقص يدخل النقص فى جميع بنى آدم والزروع والثمار وإذا زاد إشراقه عمت حرارته فى زرعهم وثمارهم؟ قال : نعم..

قلت : فكذلك الإيمان بمنزلة الشمس التى قد برزت لك على قلبك من النور وأشرقت على صدرك، فإذا حال بينها وبين القلب غيوم الشهوات، والهوى نقص الإشراق فدخل الوهن فى القلب، وفى النفس، وتعطل عن العمل وإذا ذهب الهوى

---

(١) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى دراسة لآثاره» ص ١٩٠، ط النهضة المصرية.

(٢) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى وقضايا علم الكلام» منبر الإسلام ع ٢، ص ١٠٧.

والشهوة زاد في إشراقه، استقر القلب، وقويت النفس للعبودية فمن الإشراق يزداد وينقص، فأى تنازع بقى هاهنا.

فمن قال : يزيد وينقص «بهذا المعنى» وهذا مصيب فى قوله.

ومن قال : لايزيد ولاينقص لأنه متى نقص دخل الشك، فأما الزيادة التى ذكر الله تعالى فى تنزيله يزيده نورا إلى نور، فيزداد قلبه بذلك النور الزائد إيمانا أى استقراراً وثباتًا »[١].

ومقولة : هل الإيمان والإسلام اسمان لشئ واحد أم لشيئين مختلفين؟ يرى الحكيم «أن الإيمان غير الإسلام فهما نوعان فى عقد واحد»[٢]. ويقول فى هذا :«ثم وجدتهما مختلفين، فقال : أحدهما : الإيمان والإسلام واحد، وقال الآخر شيئان متباينان.

فقلت لهما : متى وجدتما اسمين معناهما واحد، لايزيد أحدهما على الآخر، وان دقت تلك الزيادة، ولو كان كما زعمت لكان فضلا وهذيانا.

وأعلم أن الله تعالى أعطى العباد ما انقطعت حجتهم، فأراهم من الآيات فى الظاهر، وأعطاهم ماينفعهم فى دنياهم، وركب فيهم الشهوات من العلم والذهن فى الباطن حتى علموا ما يضرهم والهوى حتى دعاهم إلى عبادة من دونه طمعا فى المنافع ودفع المضار، ثم انه كان لله عبيد اختارهم وانتخبهم لنفسه، وخلقهم للسعادة، فمن عليهم بالهداية، وابتدأ أمرهم بأن طهر قلوبهم التى يريد أن يجعلها خزائنه ووعاء لمعرفته وأنواره وآياته، وموضع أسراره، وموضع نظره، فأنزل عليها رحمة طهرها بماء الرحمة حتى صلحت لهذه الأشياء التى وضعها هناك وذلك قوله تعالى:﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾[٣].

---

(١) الحكيم الترمذى «مسألة فى الإيمان والإحسان والإسلام» تحقيق الدكتور الجيوشى، منبر الإسلام ع٦ ص ١١٨، س ٣٨.

(٢) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى وقضايا علم الكلام» مقال بمجلة منبر الإسلام.ع٢ ،ص ١٠٧، س ٣٨.

(٣) سورة البقرة الآية ١٣٨.

والصبغ كل شئ يغمس فى شئ فهو صبغة، ولذلك سمى الصبغ صبغا لأن الثوب يغمس فيه، ولذلك سمى صباغ الطعام من الخل والمرئ وغير ذلك الأصباغ، فكل مغموس فيه مأكول فهو صباغ، وكل صبغ فيه ملبوس فهو صبغ، فمن اختاره الله تعالى واجتباه فمبتدأ أمره أن يطهر قلبه بماء الرحمة، حتى يدعه كالشئ المغسول، ثم أحياه بنور الحياة وذلك قوله : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ (١).

فإنما كانت بضعة من لحم، لهما عينان لاتبصران، وأذنان لايسمعان فلما طهره بماء الرحمة صلح لنور الحياة، فلما جاء نور الحياة حيى قلبه بالله، ثم جاء نور الهداية فهداه، وذلك قوله :﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾(٢).

فذلك نور المعرفة، ثم جاء نور العقل، فبنور العقل عقل نور المعرفة عن النكرة، فاستقر لأنه زينة ثم جاء نور الحب فقيده، فعندها صار محكما، فاعترف بلسانه بلا إله إلا الله مع أنوار المعرفة التى فى عقد قلبه على أنه ربه، وهو له عبد، فهو حشو هذا العقد انه رب يملكه ويحكم فى أموره ما يشاء، وأنه له عبد ينتهى إلى جميع ما يأمره، ويرضى بجميع ما يحكم به عليه انقيادا، فاستحق ها هنا اسمين : «مؤمنا ومسلما» فأما اسم المؤمن فلانه استقر واطمأن عن التردد والجولان لطلب ربه، واسمه المسلم لأنه سلم نفسه إليه فى جميع مايأمره، فمن قال من المتقدمين الإيمان والإسلام واحد فإنما قاله لأن ذلك منه فى عقد واحد، فأما أن يكون نوعا واحد فلا.. وكيف يكون الاستقرار والطمأنينة والتسليم لأمره ونهيه نوعا واحدا، ومن قال هاهنا واحدة وخفى عليه هذه الصفة فقط غلط فيه، فالعقد واحد، والقبول واحد، ولكنه عقد وقبول لنوعين، ثم اقتضى العبد من يوم أمن وأسلم فى جميع عمره أن يفى بهذا

(١ . ٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢.

العقد والقبول ووضع بين يديه العبودية نوعين: أمر يحكم به عليه ربه، وأمر يأمره به ربه»[١].

وأننا لندرك فى غير خفاء أن الحكيم الترمذى يعالج قضايا علم الكلام بما يرتبط بالسلوك والأحوال والأوامر والنواهى. ولذلك كانت مناقشاته مفيدة لاعقم فيها. تربط الإنسان بالحياة وتصله بالله، ففى موضع الإيمان والإسلام يصل إلى أن العبودية نوعين : أمر يحكم به رب العزة على الإنسان، وأمر يأمر به، والأمر الأول يقتضى الوفاء ليطمئن القلب والنفس إلى ما حكم به الله. والأمر الأول الذى يأمر به: هو الفرائض وترك المحارم والوفاء بذلك يقتضى التسليم فى كل أمر أمره ونهى نهاه..

ويرى الحكيم أن سبب النزاع القائم بين العلماء والباحثين فى الإيمان وما يتصل به من قضايا، هو : أنهم اهتموا بالأسماء ولم يبحثوا عن الأصول ولو بحثوا عن الأصول لما كان هذا النزاع. يقول الحكيم: «وأنى وجدت عامة هؤلاء المتنازعين متنازعون فى الأسماء، ولا سبيل لهم إلى الأصول فيسكن تنازعهم، فمثلهم فى ذلك كمثل رجل قال لثوب : هذا خز، وقال الآخر : شعر ، فكلاهما يرجعان إلى شئ واحد لأن الخز أيضا هو شعر، إلى خلقه الذى سمى له، وكرجل قال : هذا كلأ، وقال آخر هذا حشيش، وقال آخر : هذا نبات، وقال آخر : هذا أذخر وقال آخر : هذا مرعى، فمرجعهم إلى شئ واحد. فإنما اختلفوا لأن فى كل اسم معنى زائد لطيف دقيق»[٢] .. إنما يخوضون بجهلهم بالأسماء، وتقع بينهم المنازعة[٣].

ومن مباحث علم الكلام التى تناولها الحكيم بالشرح والمعالجة موضوع «رؤية

---

(١) الحكيم الترمذى «مسألة فى الإيمان والإحسان والإسلام» تحقيق الدكتور الجيوشى، منبر الإسلام ع٦ ص ١١٩ السنة ٣٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص ١٩٩.

الله» وقد كان تناول الحكيم لهذه القضية يقوم على مايقطع السبيل على المجادلين المعاندين، ويرى أن المتكلمين وأهل الصور الجدلية مابعدوا عن الصواب إلا بسبب سوء التأويل، ويقول فى هذا «وأهل الأهواء بسوء التأويل ضلوا، لم يعقلوا اللغة، ولم يفهموا المعانى، ولهم نفوس مظلمة يحرفون الكلم عن مواضعه بظلمة أهوائهم، وقلوبهم، ومن قل فهمه، أو عزب عنه فى وقت ساء تأويله»(١).

ويناقش «رؤية الله» فى كتابه المسائل المكنونة تحت عنوان مسألة أخرى لاتدركه الأبصار فيقول : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ (٢) فإنما ذكر الأبصار ولم يذكر سائر الأعضاء كقوله: لاتلمسه الأيدى، ولاتشمه الأنف، ولا تحس به الأسماع. لأن البصر فيه حياة الروح، وبصر الروح فى بصر العين، متصل به فهو أحد وأقوى من سائر الأعضاء، فإذا كان البصر لا يدركه فى حدته وقوته فالأيدى أعجز ثم قال: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ أى يدرك الحياة التى فى البصر»(٣).

وبعد أن يضع هذا المدخل لموضوع الرؤية يناقش المنكرين لها فيذكر: أن من احتج بهذه الآية فى شأن الرؤية ودفع الرؤية وأنكرها فليست له هاهنا حجة لأن الرؤية هى انفراج الشئ يقال رأى ورها فالهاء بدل الهمزة، ورها أى انفرج، وهو قوله: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾(٤) أى منفرجا، وذلك أنه لما ضرب البحر بالعصا انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، فمشت بنو إسرائيل فى المنفلق وهو المنفرج بين الطودين، فذاك الرهو، فيقال : رها ورأى، الهمزة بدل من الهاء، فإنما سأل موسى ﷺ، فقال: ﴿أَرِنِي﴾(٥) أى افرج لى الحجاب أنظر إليك، والنظر هو فعل العين، ينظر جلاله

(١) الحكيم الترمذى، الأكياس والمغترين، ص ٢٣ ، المكتبة الظاهرية.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠٣.

(٣) الحكيم الترمذى، «المسائل المكنونة» ص ٨٤، تحقيق الدكتور الجيوشى، ط دار التراث العربى.

(٤) سورة الدخان الآية ٢٤.

(٥) تمام الآية :﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف الآيه ١٤٣].

وعظمته وبهاءه، من غير أن يأخذه يقال: نظر ونضر، فالنضرة زهرة الوجه، والنظرة زهرة العين، فسأل الرؤية وهو انفراج الحجاب لزهرة العين إلى جلاله وعظمته وأما الإدرك فهو الأخذ وهو «الاندرياب» بالاعجمية وبالعربية الإدراك: الاشتمال، فأهل الجنة ينظرون إليه، ولاتشتمل أبصارهم على مايرون منه من الظاهرية، فأما الباطنية فلا قوام لأحد على النظر إليه، ولاسبيل إليه، وهو بالعربية بلا كيفية»[1].

فالحكيم ـ كما نرى فى هذا النص ـ يفرق بين الإدراك والرؤية ذلك أن الإدراك يقتضى الإحاطة والله سبحانه لايدرك إدراك إحاطة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولكنه سبحانه يدرك كل شئ ولهذا نفت الآية الإدراك ولم تنف الرؤية، والحكيم يرد «فى النص» على مانعى الرؤية فى الآخرة، وأما الرؤية فى الدنيا فلا تكون»[2].

أما الرؤية فى الآخرة فيرى الحكيم أنها ممكنة وحاصلة للمؤمنين «وقد أجاب الحكيم بصراحة وباختصار على سؤال وجه إليه : أيرى فى الآخرة؟

قال : نعم. قال : كيف يرى؟ قال : كما يعرف هاهنا، قال : كيف يعرف هاهنا؟ قال : كما يرى هناك[3].

والمعرفة التى يشير إليها الترمذى هى : قدرة القلب على الكشف باستصحاب الطاعة والتصفية والإخلاص، ولعل ذلك أن الله تعالى جعل القلب مستودع الأسرار، وخزينة الانفعالات المتقابلة، ومستقر عجائب المعانى والغيوب، فالبصر للملك، والبصيرة للملكوت، وان هذه الأمور من التجارب السلوكية التى لا مجال للمتمنطق فيها. وإنما هى من الجوانب العملية التى تثمرها الأذواق والمواجيد، وتتجاوب فى آفاقها الأشواق فلا يدركها تعبيره ولا يلحقها تصور[4].

---

(١) الحكيم الترمذى «المسائل المكنونة» ص ٨٤، ٨٥، تحقيق الدكتور الجيوشى.

(٢) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى» دراسة الآثارة ص ١٨٤.

(٣) الحكيم الترمذى نقلا من كتاب الحكيم الترمذى دراسة لآثاره للدكتور الجيوشى ص ١٨٤.

(٤) الشيخ محمد زكى ابراهيم «أبجدية التصوف الإسلامى» ص ٧٨، ٧٩ الحكيم الترمذى «مسألة فى الإيمان والإسلام والإحسان» ص ١١٧ تحقيق الدكتور الجيوشى ،منبر الإسلام ع ٦، ص ٣٨.

والمتابع لما جاء عن الحكيم فى قضايا علم الكلام.. يجد أنه يلتزم بالشرع فى هذه الأمور لذا نراه فى قضية القرآن وخلقه التى ثار حولها ما ثار يقول : «ولايدرون ما القرآن، ولايدرون ما المخلوق، ولم سمى قرآنا ولم يسمى مخلوقا إنما هو كلام على الألسنة كالهذيان، يقاسون من تلقاء أنفسهم، ويطلبون حذق الكلام ودقته، أقل قوم دعة وأشدهم حســرة»[١] وفى موضوع آخر من رسالته: «مسألة فى الإيمان والإحسان والإسلام» يقول: «يقولون القرآن ولايدرون ما القرآن فمرة يشيرون إلى ما فى الصحف ومرة يشيرون إلى أصول القراءة، ومرة يشيرون إلى الوحى، والأولى بهؤلاء السكوت عن مثل هذا ، والإقبال على ما أمروا»[٢].

ويعلق الدكتور عبد الفتاح بركة فى رسالته «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية» على هذا النص بقوله:«فماذا نرى؟ نرى أنه يطلب قبول ما جاء به الشرع، والتسليم له دون الاشتغال بالبحث والاستقصاء فى مسائله هذه إذ الأولى بنا أن نشتغل بما أمرنا به»[٣].

والباحث فى كتابات الحكيم يدرك أن الحكيم كان على معرفة تامة بمذاهب علماء الكلام وقد جاء الأصل الثالث والستون والمائة فى كتاب «نوادر الأصول» عن «مذهب أهل الأهواء» تحدث الحكيم عن هذه المذاهب تحدث العالم، ويقول فيها : «أهل الأهواء قوم استعملوا أهواءهم والأهواء ميالة عن الله تعالى، فحيث ما مالت اتبعتها قلوبهم لأنه لم يكن فى قلوبهم من النور مايصدهم عن اتباعها، وأهل الأهواء كلما استحلوا شيئا ركبوه واتخذوه دينا حتى ضربوا القرآن بعضه ببعض وحرفوه»[٤].. وفى موضع آخر من هذا الأصل يقول: «وقوم هم أهل الضلالة

---

(١) الحكيم الترمذى «مسألة فى الإيمان والإسلام والإحسان» ص ١١٧، تحقيق الدكتور الجيوشى منبر الإسلام ع ٦ ص ٣٨.

(٢) الحكيم الترمذى «مسألة فى الإيمان والإسلام والإحسان» ص ١٩٩.

(٣) الدكتور بركة «الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية » جـ ١، ص ١٠٨.

(٤) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص ٢٠٩.

كالمشبهة والقدرية والجبرية والجهمية وأشباههم مالت قلوبهم وأُبعدوا وضلوا عن الله تعالى. فإن الله تعالى اقتضى للعباد الإسلام دينا والإسلام تسليم النفس، والدين الخضوع لله تعالى بتسليم النفس»[1] «وإنما صار هؤلاء فرقا لأنهم فارقوا دينهم، فبمفارقة الدين تشتّتت أهواءهم فافترقوا»[2].

ويتكلم الحكيم عن الخوارج فيقول : «الخوارج قوم ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فهم الأخسرون أعمالا حبطت أعمالهم فلا يقام لهم يوم القيامة وزن، وذلك بأنهم قد اجتهدوا ودأبوا فى العبادة وفى قلوبهم زيغ وقاسوا برأيهم وتأولوا التنزيل على غير وجهه»[3].

والأزارقة صِنف من الخوارج كان رئيسهم نافع بن الأزرق، وكان من شأنه أن يخاصم بتأول القرآن فى زمن ابن عباس رضى الله عنهما فنُسب أتباعه إليه فقيل الأزارقة، وفى زمن على كرم الله وجهه كان رئيسهم ابن الكواء، وفى زمن التابعين رضوان الله عليهم أجمعين كان نجدة الحرورى»[4].

ويذكر الحكيم أمثلة هؤلاء الذين ضلوا بسوء التأويل فيقول : وأما سوء التأويل فمثل فعل هؤلاء الحرورية كفروا بالذنب واحتجوا بقوله ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وإنما هذا العصيان فى التوحيد، وهذا فى خطاب الجن»[5].

«ومازال بهم التنطع والتعمق حتى كفروا الموحدين بذنب واحد حتى صاروا بذلك

(١) الحكيم الترمذى «المرجع السابق» ص ٢١٠.
(٢) المرجع السابق ص ٢١٠.
(٣) المرجع السابق ص ٥٤.
(٤) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص ٥٥.
(٥) الحكيم الترمذى «الأكياس والمغترين» ص ٢٢، مخطوط الظاهرية بدمشق.(سورة الجن ٢٣)

إلى الأنبياء عليهم السلام للزيغ الذى فى قلوبهم دخلوا فيما لم يأذن به الله تعالى»[1] فأهل الزيغ ـ عند الحكيم ـ طالبون لها، باحثون عنها، ومفتشون عليها، ولن يزدادوا بذلك التفتيش إلا حيرة وعمى»[2].

ولعل ماذكرناه من كلام الحكيم الترمذى فى شأن هذه الفرق يعطينا صورة واضحة عن موقفه من هؤلاء.. والحكيم لايكتفى بهذه المواقف، بل يضع للباحثين والعلماء المقياس الذى يعرف به من هذه المسائل ما هو من الدين، وما هو ليس من الدين، فيقول :«فأما أصحاب رسول الله ﷺ بعده قد اختلفوا فى أحكام الدين، فلم يفترقوا، لأنهم لم يفارقوا الدين، وإنما اختلفوا فيما أذن لهم النظر فيه، والقول باجتهاد الرأى، واختلفت أراؤهم فاختلفت أقوالهم، وقد أمروا بذلك فصاروا باختلافهم محمودين لأنه أدى كل واحد منهم على حياله ما أمر من جهد الرأى والنظر فيه، وكان ذلك الاختلاف رحمة من الله تعالى على هذه الأمة حيث أيدهم باليقين، ثم وسع على العلماء منهم النظر فيما لايجدون ذكره فى التنزيل، ولا فى سنة الرسول عليه السلام حتى يلحقوه ببعض وكانوا أهل مودة وعطف متناصحين، أخوة الإسلام فيما بينهم قائمة، فكل مسألة حدثت فى الإسلام فخاض فيها الناس واختلفوا، فلم يورث ذلك الاختلاف عداوة بينهم ولابغضا ولافرقة، علم أن ذلك من مسائل الإسلام يتناظر فيها، ويأخذ كل فريق بقول من تلك الأقوال ثم لايكونون على أحوالهم من الشفقة والرحمة والألفة والمودة والنصيحة، كما فعل الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم»[3].

---

(١) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول»، ص ٥٤.

(٢) الحكيم الترمذى «علم الأولياء»، ص ١٣٤.

(٣)الحكيم الترمذى «نوادر الأصول»، ص ٢١٠، ٢١١.

وهذا جانب يبين أن المسائل التى اختلفوا فيها أذن لهم الإسلام بالنظر فيها والقول بالاجتهاد بالرأى فاختلفت أراؤهم ولم يفترقوا لأنهم لم يفارقوا الدين.

ويمضى الحكيم فى بيان الجانب الثانى فيقول : «وكل مسألة حدثت فاختلفوا فيها فردهم اختلافهم فى ذلك إلى التولى والإعراض والرمى بالكفر على أن ذلك ليس من أمر الدين فى شئ، بل حدثت من الأهواء المردية الداعية صاحبها إلى النار، وتورث العداوة والتباين والفرقة لأنها التى ابتدعها الشيطان فألقاها على أفواه أوليائه ليختلفوا ويرمى بعضهم بعضا بالكفر لأنه لما خلت قلوبهم من خشية الله تعالى وخوف عقابه بما قدمت أيديهم من ذكر الموت والأهوال التى أمامهم، والاهتمام بصحة الأمور وطلب الخلاص فيما بينهم، والانتباه لحسن صنيعه بهم وطلب النجاة من رق النفوس إلى حرية العبودة لربهم عز وجل فلما خلت من هذه الأشياء قلوبهم وجد العدو فرصة فألقى إليهم مثل هذه الأشياء التى يعلم المستنيرة قلوبهم أن هذا تكلف وخوض فيما لايغنيه مثل قولهم فى الجبر والقدر والاستطاعة قبل الفعل ومعه، وطلب كيفية صفات الله تعالى»[١].

فالحكيم فى هذا الجانب يتكلم عن طائفة اهتمت بمسائل الفتنة حيث أن الكلام فى تلك المسائل مما لم يؤذن فيه[٢].

ويرى الحكيم أن الذى دفع هؤلاء إلى المواقف المردية، أنهم نظروا إلى المسائل من أهوائهم وسموها عقولا. وزعموا أن عقولهم لاتقبل هذه الأشياء ولا يصح مثل هذا من طريق المعقول، فكل ما لا تقبل عقولهم فذلك باطل، فيا أخى كيف تدرك بآلة مخلوقة محدثة مركبة ربوبية خالق قدير رب عالم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؟.. ومتى يدرك شئ يزيد وينقص ويتقارب ويتفاضل ربوبية رب لايزيد ولاينقص ولايتغير حاله؟ بل العقل حجة من الله تعالى على العبد، وهو آلة مركبة لإقامة

(١) الحكيم الترمذى «نوادر الأصول» ص ٢١١.

(٢) الحكيم الترمذى المرجع السابق ص ٢١١.

العبودية لا لإدراك الربوبية، ومن عجز عن إدراك أشياء فى نفسه مخلوقة فيه ولم يدرك حقيقتها علما إلا بالظن والخيال مثل النوم وأحوال القلب وطبائع النفس والروح ولا يعرف حقيقة النفس أى شئ هى، ولايعرف حقيقة العقل الذى يدعى أنه يعرف به كل شئ، فكيف يكون له سبيل الإدراك إلى ماهو أعلى منه؟ بل الصواب التسليم للحكم والاستسلام للرب. والرجوع إلى الحق[1].

وبعد، فهذه بعض الأمور التى استطعنا أن نلمح إليها من جهود الحكيم الترمذى فى علم الكلام وموقفه من المتكلمين، وحسبنا أن لفتنا النظر إلى شئ منها، وذلك يغنى عن التفصيل، وما يحتويه التفصيل من تعريفات قد تبعد بنا عن الهدف الأصلى.

وقد بان لنا أن الحكيم قام نظره فى الأصول على التأمل والنقل والأثر والاستدلال بالآيات على مايريد، واتسمت معالجته لمسائل التوحيد بجانب النقل والأثر بصبغة ذوقية.

---

(١) الحكيم الترمذى «بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» ص ٩٢.